مشكلات الإنتاج في أدب الطفل المحلي والمُنافسة العالميَّة

أ.عبد الباقي يوسف

روائي وأديب سوري،

عضو اتَحاد الكُتّاب العرب في الجمهورية العربية السورية

استهلال

المنافسة في أيّ إنتاجٍ يمسُ مقوماتِ حياتنِا المعاصرة تعني التحدّي حتى نبقى واقفين على أقدامِنا أولًا، ثم نبقى في جذورنا ثانيًا.

ويظهر أننا قصَّرنا في هذه المسألة إلى درجةٍ تَمكَّن فيها إنتاجُ الآخر العالمي بشكلٍ شبه عامٍ من الاستحواذ على منزلةٍ متقدّمة لدينا. وهذا لا يقتصر على مناطقنا فحسب، بل باتت منافسة عالميّة في عالمٍ تكاد تتحكَّم به السمة الاقتصادية.

وفي هذه الورقة العلمية سيكون الحديثُ في محورَين: محوَر ما يواجِهُه الإنتاجُ الأدبي الموجّه للطفل في بلادِنا من معوّقات، ومحوَر كيفية التنافس مع أدب الطفل الذي يتوافَد إلينا من العالَم.

وهنا أريد أن أبيّن بأن الأدب هو العمود الفقري لمواجهة هذا التحدّي العظيم؛ لأن الأدب بمقدُوره أن يُحصّن في مسألة التعامل مع هذا الواقع بحكمةٍ؛ لأننا لا نستطيع أن نعيش في قطيعةٍ عن العالَم، وكذلك نحن لا نريد أن نعيش في قطيعةٍ أو في عزلةٍ عنه، كوننا جزء من هذا العالَم، لكن نريد أن نكون جزءًا مُساهِمًا في الإنتاج العالَمي، وليس جزءًا مستهلِكًا فحسب، بحيث تذهب كل خيرات بلادنا إلى جيوب العالم نظير استيراد المنتجات منه. بل

علينا أن نعرف كيف نحوَّل هذا التحدّي إلى علاقة تبادلية بيننا وبين الآخرين، وهذه هي وظيفة الأدب، وأدب الطفل هو ركنٌ أساسٌ من مختلف الأجناس الأدبية: من قصة، ورواية وشعر، ومسرح.

ولا بدَّ من تحصين أطفالِنا بالقراءةِ، والمستقبلُ الجيدُ هو مستقبلُ القراءة، وإذا نظرنا إلى المجتمعات الأكثر تقدمًا والأكثر رفاهيةً في العالَم، والتي تعيش في الدرجات الأولى من الرفاهية والتقدّم والإنتاج والاقتصاد، نرى أن نسبة الأمّية تكون معدومة فيها، وهي مجتمعات تقرأ بامتياز، أي هي مثقّفة بامتياز، وتعرف كيف توظّف مهاراتها ومواهبها وأوقاتها بامتياز، بل وتعرف أيضًا كيف تستدرج أصحاب المهارات والمشاريع الاقتصادية الكُبرى من العالَم إليها.

تنمية شخصيَّة الطفل ثقافيًا في المنافسة

إن أي طفلٍ يولد في العالَم وأينما كانَت جغرافية تلك البقعة مِن العالَم، فهو كائنٌ عالَميٌ جَديدٌ يُقبِل إلى هذا العالَم، مثله مثل أي طفل يولَد، بصرف النَظَر عَن أبوَيه، أو المكان الذي ولِدَ فيه، أو لغتِه، أو انتمائه القومي، لكن بعد الولادة يختلف الأطفالُ عن بعضهم بعضًا في مراحل النمو والانفتاح على الحياة، فالعوامل الخارجية هي غاية في الأهمّية في مسألة تمييز بعض الأطفال على غيرِهم، ومن أهم هذه العوامل: الأدب الموجَّه للطفل، خاصَّةً بعد السادسة من عمره، فهو ينمّي شخصيّتَه ويهذّبها.

وبطبيعةِ الحال فإن لكل مجتمعٍ خصائِصه، ونحن لا نريد أن يكون طفلُنا هو نسخة تقليدية عن الطفل الأوربي على سبيل المثال، لكن نأخذ منهم

الآداب التي تتوافق مع طبيعة مجتمعاتنا الحديثة، وكذلك فإن أدب الطفل الذي نُنتجه، عليه أن يحمل خصائص مجتمعِنا، بحيث يصلح أن يتقدَّم للطفل أينما كان وهو يحمل ملامح طفولة لها خصائصها وفق خصائص المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الأدب.

وبذلك، فإن أدب الطفل الأمريكي له خصائصه التي تميّزه عن أدب الطفل الصيني أو الفرنسي، فعلى أدب الطفل في بلادنا أن يُحافِظ على خصائص مجتمعاتنا، وأن يجعل طفلنا متمسكًا بمجتمعه ومفتخرًا به، وأن يشعر بمسئوليَّةٍ نحوه، وهذه المهمة تقع على عاتق أدباء الطفل، فكما أننا نريد لأطفالنا أن يُحبّوا أطفال العالم ويتعاطَفوا معهم، فعلينا أن نُقنع أطفال العالَم أيضًا أن يُحبّوا أطفالنا ويتعاطَفوا معهم، وبذلك يكتسب أدب الطفل عندنا سمة العالَمية، ويُصبح مرغوبًا فيه مِن قبل المؤسسات والجمعيات والمنظّمات الخاصة بالطفل في العالم.

وهذا بالضبط ما اشتغل عليه كاتبنا الكبير نجيب محفوظ في أدبه الموجَّه للكِبار، بحيث استطاع أن يوصل بيئةَ مجتمعاتِنا إلى العالَم، فكان الاحتفاءُ العالَميُ بأدبه؛ لأن العالَم أحسَّ بحاجَته إلى ذاك الأدب، وبذلك فإن الخطوة الأولى نحو العالمية تبدأ من المحلّية، وهنا يكون التنافسُ الحقيقيُ الجَميل بين أدباء الطفل في بلادنا وبين أدباء الطفل في العالَم.

الأمر الآخر، لا بدّ من إيجاد قنواتٍ توصل آدابنا الخاصة بالطفل إلى العالَم، وذلك من خلال الترجمة، وتَواجدها في المعارض العالمية للكُتب، فتأخذ المؤسساتُ الرسميةُ على عاتقها هذه المسألة كعملٍ ثقافيٍ وتربويٍ قومي.

فأدب الطفل يعني بناء مجتمع، يعني المستقبل، والبلاد المتقدّمة هي التي تولي مسألة العناية بتربية الطفل أدبيًا أهمية جادة، وهذا ما حصل بالنسبة للنقلة النوعية في المجتمعات الأوربية، هذه المُجتمعات التي كانَت تمر في ظروفٍ هي أسوأ بكثير من الظروف التي تمرّ بِها مجتمعاتُنا في الوقت الراهن، ولكنَّها استطاعَت أن تتجاوَز تلك الظروف القاسية، بل واستطاعَت أن تتحوَّل إلى أكثر المجتمعات رخاءً وأمانًا.

وإذا عدنا إلى أسباب ذلك، وعلى سبيل المثال في القرن الثامن عشر في عصر التنوير الأوربي، سنرى أنَّها بدأت التركيز الجاد على أدب الطفل، حينما أرادت الخروج من أزماتها والتحوّل إلى واقعٍ جديد.

وأي مجتمعٍ جديدٍ، فإن الطفل يكون دعامته الأساسية، وعموده الفقري، وقد بيَّنتُ في كتابي (عالم الكتابة القصصية للطفل) الصادر في المملكة العربية السعودية، عن دار المجلة العربية، سنة ٢٠١٠ أهمية دور أدب الطفل في تقدّم مجتمعاتنا، وتجاوزها لكثيرٍ مِن الأزمات، وتم توزيع هذا الكِتاب كهديةٍ مع أعداد المجلة العربية.

الطفل هو البذرة التي إن اهتممنا بِها أنتجَت ثمارًا يانِعة، وإن أهملناها لبثت مريضة وفريسة للأوبئة، ولأن الأمور متداخِلة مع بعضها ومكملة لبعضِها، فلا بدّ من التخفيف ما أمكن مِن حالة الأميَّة، والعمل من أجل أن يستكمل الطفل تعليمه.

أجل، نحن في أمس الحاجة في هذه الأوقات إلى تجديد الكثير مِن المفاهيم السطحيّة التي كُنّا عليها وألحقت بِنا ما ألحقَت من أذى، وليس لنا

سوى أطفالِنا كي نضع أقدامهم في النهج الصحيح حتى لا يُكرّروا المعاناة التي عشناها، وعلى أديب الطفل أن يركّز على هذه المسألة بدقّة وبذكاء وهو يُنتج عمله الإبداعي الجديد الموجَّه إلى الطفل.

إن كل أبواب المستقبل ستكون مغلقة أمامنا إذا كانَت حالة القراءة متدّنيَّة لدى أطفالِنا؛ إذ لا يكفي أن يقرأ الكِبار، فلا بدَّ أن يقرأ الأطفال أيضًا، ويعتادوا القراءة حتى تتفتَّح مدركاتهم على القراءة، وتغدو سلوكًا لديهم.

نحو المزيد من العناية بتربية الطفل في مجتمعاتنا

إذا نظرنا إلى منزلة ومكانة الأدب في مجتمعاتنا، سيجلو لنا أهمية ورفعة هذه المنزلة عبر العصور، حيث تمتع الأدب والأدباء بأهمية سواء لدى قبائلهم، أو لدى أهل الأمر، وعلى قدر ما تمتع به الأدب بأهمية قصوى في تراث مناطقنا بشكل عام، تمتع كذلك أدب الطفل بهذه الأهمية، ويمكن ملاحظة العناية بتربية الطفل في العديد من المؤلفات التراثية، هذه العناية التي تفرَّع منها الأدب الموجه للطفل، وقد توارثت الثقافة هذه العناية بحيث بدأ الانتشار الكبير لأدب الطفل من خلال المجلات والكتب، ومسابقات أدب الطفل التي تحث أدباء الأطفال على تقديم عيون نتاجاتهم في هذا المجال.

إن كتبًا، مثل: (كليلة ودمنة)، وبعض مؤلفات الجاحظ، والحكايا التراثية المعروفة يمكن اعتبارها ريادة في أدب الأطفال، بحيث فتحت آفاقًا أمام مخيلة كبار كتاب الأطفال في العالم.

اهتم الناس بمختلف شرائحهم بأدب الأطفال، وكان الآباء عبر العصور يتقصدون بعض التصرفات بحضور أطفالهم؛ حتى يقتدوا بهم. ذات

مرة اصطحب يزيد بن المهلب ابنه معاوية معه، ومرّا بامرأة بدوية، فاستضافتهما وذبحت لهما عنزًا، فلما أكلا قال يزيد لابنه: ما معك من النفقة؟.

قال: مائة دينار.

قال يزيد: اعطها إياها.

فقال له ابنه: هذه امرأة فقيرة، يرضيها القليل وهي لا تعرفك.

فقال يزيد: إن كان يرضيها القليل، فأنا لا يرضيني إلا الكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي(١).

وقد تنوَّعت أساليب ووسائل مخاطبة الطفل بغية توجيهه، وتوظيف إمكاناته ومواهبه بشكل سليم، ذلك أن الموهبة إن لم توجَّه بشكل سليم، فإنها توجَّه بشكل سلبي يلحق الضرر بالموهوب، وبالمقربين منه، وبالمجتمع الذي يعيش فيه، فالذكاء يمكن استخدامه في سبل الشر، والشرير الذكي هو أكثر إيذاءً من الشرير غير الذكي.

جاءت الحكمة الموجهة إلى الطفل لتبين له السبل، وهي نوع من الأدب الذي يعتمد على الأمثلة، وهو أيضًا يستخدم الحيوان والجماد، ويضع الطفل أمام مسئوليته تجاه علاقاته الشخصية، وتجاه نفسه، وتجاه الطبيعة التي يعيش فيها، وتجاه المجتمع الذي يترعرع بين ظهرانيه، وكذلك تجاه الإنسان بشكل عام.

الحكمة على الأغلب تكون من الأب إلى ابنه، وحتى بالنسبة للحكيم (أحيقار) فكان يوجه الحكمة إلى ابن أخته، وهو ينظر إليه بعين الأبوة إذ لم يكن أبًا، فعندما يغدو الرجل أبًا، فإن هذه الأبوة توقظ مشاعره لأول مرة على

مسئولية أبوية تجاه هذا المولود الذي يشعر نحوه بتلك الرابطة السامية؛ ولذلك فإنه لا يريد لأحد أن يتفوق عليه، لكنه يريد لابنه أن يتفوق عليه، وقد تحدث الكثير من الحكماء في التاريخ البشري عن عاطفة الأبوة، واشتهروا بمواعظهم لأولادهم، وقد اشتهر منهم (لقمان الحكيم)، وهو أحد أقطاب الحكمة في التاريخ الإنساني بمواعظه ونصائحه لأبنائه، وهي مواعظ تفجر حالة الأبوة، وتضع الآباء أمام حجم المسئولية تجاه أبنائهم. لقد أصبح لقمان أبًا بعد مرحلة بالغة الصعوبة في حياته، وفي تلك اللحظة أدرك معنى أن يكون المرء أبًا، يشعر بأن كائنًا ما قد انفصل عنه، وعليه أن يولي هذا الكائن عنايته الفائقة حتى يقف على قدميه.

عندئذ أحس بأن عليه اختيار اسم يليق به، فقال لقمان لامرأته: أرى أن نسميه (ثاران) يا سادر، هل توافقين على هذا الاسم؟.

قالت: أجل يا لقمان، أرجو أن يجعله الله خيرًا لنفسه، ولأبويه، ولأقربائه، ولعموم الناس. بدأ في حالة مراقبة دائمة لمراحل نمو هذا الطفل، ومع كل مرحلة تتجلى له عظمة الله، دقة الله في الخَلق، وكذلك يزداد شعورًا بالمسئولية تجاه هذا الطفل الذي سوف يناديه: أبي. سوف يقترن أحدهما بالآخر، يقول له الناس: يا أبا فلان، ويقولوا لابنه: يا بن فلان.

إنه شكلٌ جديد من أشكال محبة الله للإنسان، إنها لذة الأبوة، لذة حمل الطفل بين الذراعين، لذة قرّة العين. إنه سعيد، وهذه السعادة حققها له الله. يتأمل جمالية براءة الطفولة، يتأمل بروز الأسنان الأمامية أولًا حتى لا يتألم الطفل، ثم بروز الأسنان الخلفية، إنها أسنان لمرحلة مؤقتة يتناول بها طعامًا

لينًا حتى تقوى اللثة، ثم تسقط هذه الأسنان ليهب له الله أسنانًا دائمة صالحة لخدمته مدى العمر مهما كان هذا العمر طويلًا إن اعتنى بهذه الهبة، وحافظ عليها.

عندما بلغ (ثاران) عامه الخامس، وُلِد ابنه الثاني الذي أسماه (نادان)، إنها ذات الجمالية، بيد أن طعمها مختلف، إنه الولد الثاني، قرة العين الثانية، قطعة الكبد الثانية. ازداد يقينًا بأن الله لو لم يكن يحب الإنسان لما زيّن حياته بالأطفال.

كم تشعر بحالة الرضا عن نفسك يا لقمان عندما يسيل عرق من بدنك وأنت تقوم بعمل شاق لتقدم لقمة طيبة لأهلك، لنفسك، حتى لحيوان أولاك الله أمره. عليك أن تعرق يا لقمان، كما عليك أن تبرد. عليك أن تجوع، كما عليك أن تشبع. عليك أن تتذوق الداء، كما عليك أن تتذوق العافية.

عندما بلغ (ثاران)عامه الخامس عشر قال لأبيه ذات صبيحة، وهو يهم بالخروج من البيت إلى حانوت الخياطة: يا أبي لقد أحببت مهنة الخياطة، وأريد أن أتعلمها. عندئذ خطرت فكرة الاستقلال في العمل للقمان، نظر إلى ابنه، وقال: سوف أنظر في الأمر يا بني.

في اليوم التالي قبل العودة من العمل إلى البيت، عرج في طريقه على (أيوب)، رآه حزينًا في حانوته، قال لقمان: أراك حزينًا يا صاحبي.

أجاب أيوب: حزني على ولدي العاق يا لقمان، بلغ العشرين من عمره وما زال لا يشعر بمسئولية تجاه البيت، غدًا عندما أموت، سوف يحل مكاني، وأخشى على أمه وأخواته.

قال لقمان: أنت المسئول يا أيوب، الطفل بالنسبة للأب كالعجينة بيد العجان، يفصل رغيفه كيفما شاء.

قال: كيف يا لقمان؟.

قال: كل ولد له طريقة للتعامل معه، أحيانًا يحتاج الولد إلى شيء من الخوف من أبيه، اِضربه يا أيوب ضربًا غير مبرح؛ حتى تُشعره بشيء من هيبتك عليه، الضرب للولد يا أيوب كالسماد للزرع، عليك ألاّ تضربه من أجل الضرب، بل من أجل أن يشعر ببعض الخوف من رب البيت، فإن عدم خوف الولد من رب البيت يؤدي به إلى المهالك. عندما لا يخافك ابنك يا أيوب عليك أن تخاف عليه كثيرًا، وعندما لا تخافك امرأتك، عليك أن تخاف عليها كثيرًا.

إذ ذاك قال أيوب: ومتى على رب البيت أن يخاف على نفسه كثيرًا يا حكيم؟.

صمت لقمان قليلًا ثم قال: عندما لا يخاف مقام ربه.

سنة بعد سنة غدا الولدان يتعلمان مهنتي النجارة والخياطة من أبيهما، فيعينانه، وهو يرقبهما ويشعر بحبور؛ لأنه استطاع بفضل الله أن يقدم إلى هذا العالم شخصين يعملان. إنه الآن شخص يعيش في الحياة، يخوض مراحلها، يتعرف جوانب جديدة لم يكن يخبرها. الأبوة، يا لها من كلمة مفعمة بعوالم غنية، إنها إشراقة جديدة على الحياة من نافذة جديدة. إنك يا لقمان تشعر بمسئولية نحو الحياة، هذه المسئولية التي تحمل خصوصية معاني كلمة الأبوة. كنت في السابق صاحب بيت فارغ لا أحد فيه، الآن غدوت رب بيت، رب أسرة، الآن أولاك الله مسئولية أن تربي ولدين، أن تطعمهما، ترشدهما إلى نهج الإيمان، تؤدبهما، أن تتلقى هبة الله، وتحسن إليها كما أحسن الله إليك، أن ترفع

نظرك إلى السماء، وتقول: ها أنذا قمت بكل ما استطعت حتى أحسن إلى هذه الهبة. وتعود إلى الوراء حتى ترى مواقفك موقفًا موقفًا في تلك المراحل التي مرّ بها أولادك وكنت واقفًا عليهم تبذل كل جهودك المادية والمعنوية في سبيل الإحسان إليهم، وفي سبيل أن تحصل على براءة من ربك نحوهم. وإن أخفقت جهودك يا لقمان، سيكون لك ثواب الإخلاص في السعي، سيكون لك أجر تقديم موعظة، أجر إطعام لقمة، أجر إكساء كسوة، أجر سهر ليلة، أجر حتى بسمة وأنت تبتسمها، أجر حتى قبلة وأنت تضعها على وجه هذه الهبة التي وهبها الله لك.

شغلت تربية الأطفال الإنسان منذ القدم، فكان دائم البحث عن مواعظ يعظ بها أطفاله، وقد عُرف عن لقمان الحكيم عنايته بمخاطبة الطفل من خلال ما ترك من حكمة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حكمة لقمان وهو يعظ ابنه.

كان هذا الرجل الحكيم يعتمد على الحكمة في مخاطبة الطفل(٢)، وكانت حكمته هادفة تدعو الطفل إلى الصلاح، وبر الوالدين، وتزرع في نفسه قيم الوفاء، والعمل، والتواضع، فعندما بلغ ابنه (ثاران) العشرين من العمر، قال له لقمان: أريد أن أختلي بك هذه الليلة يا ثاران حتى أعظك.

فرح ثاران قائلًا: إنها ليلتي يا أبي... إنها ليلتي... الليلة التي طال انتظاري لها، ثم وقع على كفيَه يقبلهما، وراح يغتسل بشكل جيد، يرتدي ثيابًا جديدة، وحول منتصف الليل تهيأ تمامًا ودخل على أبيه.

أجلسه لقمان إلى يمينه بالقرب منه، وقال: يا بني أريد أن أقول لك كلمات تكون عونًا لك في حياتك.

قال ثاران: كم سألتك الموعظة يا أبي إلا أنك كنت دومًا تقول لي: في حينها.

قال: كنت أعظك في المرحلة الماضية بأفعالي، أما الآن أصبحتَ في مرحلة عليّ أن أعظك فيها بأقوالي.

قال: إني كلي إصغاء إليك يا أبت.

قال لقمان: يا بني، إياك والكسل والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقًا، وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

يا بني، إن الله أرضاني لك فلم يوصني بك، ولم يرضك لي فأوصاك بي.

يا بني، لا تأكل شبعًا على شبع، فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

يا بني، كل أطيب الطعام ونم على أوطأ فراش.

واعلم يا بني أن المعدة إن امتلأت، نامت الفكرة وخرست الكلمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

قال الابن وهو في حالة شديدة من الإصغاء: أمرك مطاع يا أبي.

قال لقمان بنبرة هادئة وكأنه يهدهده: يا بني، لا تكن حلوًا فتبلع، ولا مُرًا فتلفظ. يا بني، إياك والكذب فإنه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك، فعند ذلك يذهب حياؤك وجاهك وتُهان ولا يُسمع منك إذا حدّثت، ولا تصدَّق إذا قلت، ولا خير في العيش إذا كان هكذا.

استطاع لقمان الحكيم أن يترك عيون الحكمة في أدب الطفل، خاصة بعد سن الثامنة، حيث يتفاعل الطفل مع حكمته، ويتخذها منهاجًا لحياته، وكان أحيانًا يعتمد على الإشارة في مسألة تربية وتوجيه الطفل، ومن ذلك ما يذكر

عنه أن ابنه الصغير أراد ذات يوم أن يعرف منه كيف يمكن له أن يرضي الناس جميعًا.

قال له ابنه: يا أبي أريد أن أعرف منك أمرًا يحيرني.

قال لقمان: ما الذي يحيرك يا بني؟.

قال: أريد أن ترشدني إلى سبيل أستطيع من خلاله أن أرضي الناس جميعًا.

لم يجبه لقمان، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبه في طريق قبل ذهابهما إلى العمل في محل الخياطة.

قال نادان: أجل يا أبي.

طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار، أسرع نادان في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيدًا عن الديار. بعد شيء من المسير والابن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه مع أبيه، أوقف لقمان الحمار، وبعد قليل ركبه داعيًا الابن أن يمشي بجانبه في الطريق. مشى نادان وهو ينتظر ما يقوله، ولقمان يمضي راكبًا الحمار دون أن يتحدث بشيء. بعد مسير طويل اقتربا من بعض الناس كانوا يجلسون تحت فيء شجرة، مرّا أمامهم والقيا عليهم السلام، أجابوا عن سلامهما، ثم قال أحدهم: أما نظرتم إلى هذا الشيخ القاسي، يركب الحمار دون أن يأبه بابنه الصغير الذي يمشي على قدميه، التفت الابن ليجيب عنه، فمنعه لقمان، وأكمل المسير. بعد غيابهما عن ذاك الجمع أوقف لقمان الحمار، وطلب من ابنه أن يركب بدلًا عنه. تردد الابن، إلا أنه أمره أن يفعل ذلك، فاضطر إلى ركوب الحمار تاركًا أباه العجوز يمشي بجانبه، مضيا في الطريق حتى اقتربا من شخصين يسيران في ذات الطريق، وعندما مرّا من أمامهما

وتبادلوا السلام فيما بينهم، سمعا صوت أحدهم يقول لصاحبه: انظر... انظر، يا للعجب، هذا الابن العاق ركب الحمار تاركًا أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه.

أراد الابن أن يجيب عنه فمنعه الأب وطلب أن يمضي بالحمار في الطريق. بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف، وعند ذاك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه، ومضيا في الطريق. مرّا بجانب جمع من الناس يجلسون أمام بيت، ألقيا عليهم السلام فأجابوا عن السلام، ثم ما لبث أن قال أحدهم: يا لقسوة قلبيهما، ركبا معًا هذا الحمار المسكين دون أن يرأفا به.

بعد بعض المسير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه.

مشيا إلى جانب الحمار حتى مرّا بثلاثة رجال يمضون في الطريق، ألقيا عليهم السلام، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبَيه: أما رأيتم هذا العجب، معهما حمار ولا يركبانه، عندذاك وقف الابن وقال لأبيه: الآن أجبتني خير إجابة عن سؤال البارحة يا أبت.

اعتمد كبار أدباء الأطفال على ما ترك لقمان الحكيم من حكمة، واستناروا بمشكاة حكمته، هذه الحكمة التي تتجلى أثرها في الأدب الذي يتم إنتاجه لعالم الطفولة. لبث لقمان الحكيم سيد الحكمة دون أن ينازعه عليها أحد، لبثت حكمته تُتداول على ألسنة الناس، وقد تركت أثرًا بالغًا في تاريخ الآداب البشرية بمختلف أجناسها وألوانها عبر العصور.

تتضمن حكمته لابنه نظرة هذا الحكيم إلى أهمية الحكمة في ترشيد وتربية الطفل.

نتعرف من خلال وجود هذا الشخص في العالم ذات حقبة تاريخية أن الأزمات التي تمر بها المجتمعات البشرية هي أزمات وجود رجال حكماء، وأزمات حكمة، وأن الحكمة يمكن لها أن تقدم الكثير للإنسان إذا استعان بها، وهي ترتقي بالإنسان إلى درجات متقدمة من النضج الإنساني.

تبقى الحكمة لونًا مهمًا من ألوان أدب الطفل، وعلى العموم فإن أدب الطفل يقدم إليه الحكمة ولو بأشكال وألوان مختلفة، حتى تلك القصص الخارقة فإنها في نهاية الأمر تقدم للطفل شيئًا من النصح والموعظة والحكمة.

وقد اهتمَّت المؤسسات الرسمية بأدب الأطفال استنادًا إلى التراث الأدبي والثقافي الذي تتجلى فيه العناية بتربية وأدب الطفل؛ ولذلك عندما ازدهر أدب الطفل في العالم، ازدهر أدب الطفل كذلك في بلادِنا، سواء من خلال ترجمة هذه الآداب الموجهة للطفل، أو من خلال تفرّغ بعض الأدباء وتخصصهم في كتابة أدب الطفل، وقد اهتم كبار أهل الفكر والأدب في بلادِنا بهذا اللون من الأدب وأسهموا فيه إسهامًا جيدًا، فالطفل هو الإنسان الذي تُعلق عليه كل الآمال والرؤى والطموحات، إنه البذرة التي يبذرها الآباء من أجل ديمومة الحياة، ويمثل صورة حضارة المستقبل. من هنا فإنه يحتاج إلى عناية تربوية مركزة، وحَذِرة.

أما الذي يتخذ على عاتقه هذه المسئولية الحساسة في التعامل مع مخيلة الطفولة وهي في مهديتها، فإنه شخص مؤتَمن على هذه المخيلة

الطفلية، وهي أمانة بين يديه يوجهها وفق توجيه موظّف بعناية؛ لأن الطفل قد ينقاد خلف أحداث قصة يقرأها إلى منعرجات طرق غير محمودة، ومخاطبة الصغير تختلف عن مخاطبة الكبير، وآلية التلقي والتأثر بالنسبة للصغير مختلفة عن آلية التلقي والتأثر بالنسبة للكبير، بل حتى مفهوم الصغير للأدب مختلف عن مفهوم الكبير له.

دور المرأة في رعاية أدب الطفل

لا شك أن الطفل يميل إلى أمّه، وهي قادرة على أن تؤثّر في شخصيَّته، المرأة بطبيعتها تميل إلى عالم الطفولة أكثر من ميلها إلى عالم الكبار، وتميل إلى العمل الأمومي والتربوي، أكثر من ميلها إلى أعمالٍ أخرى، وهي تتمتع بخصائص تؤهلها لتربية الطفل وتقديم الموعظة والإرشاد إليه، وتمتلك مقومات التأثير المباشر وغير المباشر عليه؛ لذلك تعوّل المؤسسات التربوية في العالم على شخصية المرأة المعلمة؛ لأنها تحمل في شخصيتها الكثير من المزايا التي تجعلها تُعلّم الطفل وتربّيه بذات الوقت، من مُنطلق أنها امرأة وما يلفظه الرجل المعلم بسهولة من كلمات قد تتحرج المرأة في قولها، بل قد تعاقب تلميذها إذا لفظ تلك الكلمات.

تقول الكاتبة الدنماركية (توفه ديتلفسن): "هناك طفلة صغيرة في أعماقي ترفض أن تموت".

إن الاعتماد على تربية الأطفال يقع في غالبه على شخصية المرأة المربّية، فهي تُجيد تربيته، وتُجيد تأديبه، وتجيد فن القص عليه، وهي تهدهده حتى ينام. إنها تجيد عملية تنظيم وقته، ولديها قدرة هائلة من الصبر على

نتائج عملها، والمرأة بطبيعتها تميل إلى القص والحكي؛ ولذلك شهد الأدب أسماء نسائية قصصية وروائية أكثر مما شهد أسماء نسائية شعرية، أو فكرية، واستطاعت المرأة أن تحقق حضورًا في عالم السرد الروائي والقصصي، وتفوز بأعلى الجوائز الأدبية، مثل جائزة نوبل للآداب.

ومن أبرز الروائيات في العالم: شارلوت برونتي، وجورج ساند، وأغاثا كريستي، وفرجينا وولف، وناتالي ساروت، وفرنسواز ساغان، وتوني موريسون، وإيزابيل الليندي، ونادين غورديمير.

ومن الفائزات بجائزة نوبل للآداب: (نادرين جورديمر) من جنوب إفريقيا سنة ١٩٩١، و(توني موريسون) من أمريكا ١٩٩٣، و(ألفريدا يلنك) من النمسا ٢٠٠٤، و(دوريسن ليسينغ) من المملكة المتحدة ٢٠٠٧، و(هيرتا مولر) من ألمانيا ٢٠٠٩، وحتى هذه السنة ٢٠٢٢ فازت بها الروائية الفرنسية (آني إيرنو).

تصف كريستي مرحلة طفولتها: "كان شعري مرفوعًا كما كان دارجًا في تلك الحقبة ويسمى – على الطريقة الإغريقية – مع ضفائر عالية تحيط بها عصابة حريرية بيضاء ملونة. كان هذا الزي فعلًا زيًا أنيقًا"، وعن مرحلة طفولتها تقول: "من أمتع سنوات حياتي وأسعدها، سنوات طفولتي الأولى، كان لدي بيت وحديقة كنت أعشقهما، ومربية ممتازة، وكان أبي وأمي يجسدان الحب والحنان، وجعلا من حياتهما حياة ناجحة وهانئة".

تبقى المرأة دائمة المَيل والحَنين إلى عالم الطفولة مهما بلغت من مراتب في حياتها، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها قصصيًا بدرجة أكثر قربًا من الرجل.

تقول (بيرجيت وانكرت): "غالبًا ما نغفل أن أدب الأطفال ليس ظاهرة طبيعية شأنه شأن مفهوم الطفولة الذي حمله، ولكنه بدلًا من ذلك بناء اجتماعي وُلِد مع عصر التنوير الأوربي في القرن الثامن عشر".

وحتى شخصية البنت تختلف في نموها عن شخصية الولد، فيرى ديفيز (أن البنات تسبق الأولاد الذين يجاورونهن في العمر في النمو اللغوي، وخاصة ما بين الخامسة والعاشرة من العمر"، وتقول (سيمون دي بوفوار): "نحن النساء نعرف خيرًا من الرجال عالم المرأة؛ لأننا مرتبطات الجذور به، ونحن أقدر على إدراك ما معنى أن يكون الكائن البشري امرأة".

شهد أدب الأطفال أعمالًا قصصية وروائية مهمة لأديبات من مختلف أنحاء العالم، ومن ذلك (لويزا ماي أيكوت) التي كتبت أول رواية واقعية للأطفال، بعنوان: (نساء صغيرات) سنة ١٨٦٨، تروي فيها وقائع الحياة من خلال عائلة أمريكية، وفيها نتعرف على موقع الطفل في هذه العائلة، وعن مفهوم المجتمع للطفل، كما أننا نتعرف على عالم الكبار من خلال مفهوم الصغار.

وكتبت الكاتبة الإنجليزية (آنا سويل) روايتها (الجمال الأسود) سنة ١٨٧٧، تحدثت من خلالها عن عالم الحيوان، ودعت الطفل إلى محبة الحيوان والرفق به.

كما اشتهرت الكاتبة الأمريكية (مارييت بيتشر) بقصصها التي كتبتها للأطفال، وخاطبت من خلالها عالم الطفل.

وفي اليابان ظهرت الكاتبة (كيوكو ايواسكي) التي كتبت أعمالًا قصصية للأطفال صورت من خلالها عالم الحيوان، وعالم الطبيعة.

وقد امتازت الكتابة النسوية للطفل بشيء من الشفافية والموعظة، واستطاعت أن تقدم باقة جيدة من الأعمال الأدبية إلى مكتبة الطفل.

براءة فطرة الطفولة

الطفولة هي الفطرة التي صنعت رغيف الإنسان في مخبز الحياة، وتنتمي الفطرة إلى شجرة الفطرة التي تتبرعم بذرة الإنسان في دوحة زهرتها، وتتفتح على شرفاتها لتطل على إشراقة وظلمة الحياة بحلة إنسان جديد يسعى إلى الزحف رويدًا رويدًا شطر رحابة زخم إيقاع الحياة.

كل بذرة إنسان تتلقح وتتبرعم في دوحة زهرة شجرة الفطرة، لا يوجد إنسان لم يتلق التلقيح في عتمة أريج تلك الزهرة. تنتصب الشجرة شامخة على غِنى جذورها، وينتصب الإنسان شامخًا على غِنى فطرته.

وكما أن الجذور تمسك شجرتها كي لا تقتلعها الرياح، وكي لا تمضي وفق هواها، تمسك الفطرة بإنسانها كي لا تقتلعه الرياح، وكي لا يتيه في منعرجات هوى النفس، وكما أن الشجرة تستمد عافيتها من عافية جذورها، يستمد الإنسان عافيته من عافية فطرته، وكما أن الشجرة تكون قوية قويمة على قوة ثبات جذورها، يكون الإنسان قويًا قويمًا على قوة ثبات فطرة الطفولة. كما

أن الشجرة تموت إذا اجتُثَّت من جذورها، تنطفئ في روح الإنسان نفحات الإنسانية إذا اجتث من فُطرته.

يصوّر (غراهام غرين) كيف أن الطفل يحمل إلينا معه رائحة وطيف المستقبل في قوله: "لحظة سعيدة في الطفولة، عندما يفتح الباب، ويدخل منه المستقبل".

تلبث أنوار مشكاة الفطرة ساطعة في روح الإنسان حتى اليوم الأخير من عمره، هذه الأنوار التي تجعله يمتلئ بهالة إشراقة الحيوية كلما ألقى نظرة إلى بهاء الطبيعة، وكلما وقع منه بصر على جميل، وكلما قرأ كتابًا نفيسًا، وكلما مضى في شارع جديد. هذه الأنوار التي تبثه بنضارة التجدد، وتشحن حواسه بطاقة الاندفاع شطر رحابة زهو الحياة والإبداع، والاستمتاع بمباهج قيم الأخلاق، والعفاف، والنقاء.

ولولا سطوع نور الطفولة في فطرة الإنسان لأخفقَ كثيرًا في مسعاه كي يستمتع بضحك عميق، ولأخفق في مسعاه كي يقدم عملاً جادًا، ولأخفق كثيرًا كي ينعم بسكينة الليل وهو يستلقي في دفء الفراش.

عندما يهب الإنسان بسخاء، فإن ذلك يعني أنه انطلق من مساحة مبدأ الطفولة، وعندما يعفو الإنسان عن كثير، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من معالم قِيَم الطفولة، وعندما يحب الإنسان بوفاء، فإن ذلك يعني أنه انطلق من رحابة صفاء الطفولة.

ثمة أناس استطاعوا أن يجردوا أنفسهم من غرسة الطفولة المباركة، استطاعوا أن يقلعوا هذه الغرسة من فطرتهم، فغدوا يعيشون دون مرجع

الطفولة، يعيشون دون أن تسطع وجوههم بنورانية الطفولة. ترى وجوههم قاتمة مطفأة الأنوار، ترى قاماتهم تتحرك كأنما هي أشباح. هؤلاء يمكنهم ببساطة شديدة ارتكاب قول الزور، وموارأة الحقيقة، يمكنهم أن يكونوا قساة وطغاة لأبعد حد. قست قلوبهم فمارسوا الطغيان دون أن يهتزوا خفقة قلب، ذلك إن ما نعرفه بـ الضمير إنما هو قبس من أنوار الطفولة.

والذي لا ينعم بطفولة حية يصعب عليه أن ينعم بضمير حي. فالضمير هو مرآة فطرة الإنسان؛ لأن الإنسان بحكم فطرته يجنح شطر مواطن التسامح أكثر مما يجنح شطر مواطن العقاب، يجنح شطر المحبة أكثر مما يجنح شطر البغضاء، ولا يستوطن الغل إلا في قلوب خلت بطانتها من بركات الطفولة.

على هذه الدروب الوعرة التي اتخذوها تتعزز في نفوسهم ردات فعل غير طبيعية تدفع بهم إلى شذوذ السلوك كشيء مما يمكن تسميته بسعي للنيل من صفحة طفولة الإنسان الناصعة، كونهم سقطوا فعليًا في خشونة اللا طفولة التي تساوي خشونة اللا براءة، وخشونة اللا صفح، وخشونة اللا توادّ.

إنهم في هذه المرحلة المتدنية من منارات السلوك الإنساني يسعون للاعتداء على الأطفال كحالة من الطفولة العامة، يعتدون بكل ما يملكون من أشكال مخزية تثبت مجددًا انحدار نفوسهم إلى الدرك الأسفل من التلوث الروحي. إنهم يسعون إلى اغتصاب غصن الطفولة، وإلى انتهاك حرمة الطفولة، وإلى الإساءة إلى فطرة الإنسان؛ لذلك ينطفئ نور الإنسان من وجوههم، تنطفئ لمسة نضارة الكائن البشري من سحناتهم.

من الضفة الأخرى يمكنني أن أرى عقاب الطفولة لهؤلاء، عقاب الطفولة البريء الذي يكمن في هجرانها لهؤلاء، وتركهم يتخبطون كالعمي في ظلمة الروح، لا يضحكون ضحكًا طبيعيًا، ولا ينامون نومًا طبيعيًا، ولا يجلسون جلوسًا طبيعيًا، ولا ينظرون نظرًا طبيعيًا، ولا يسمعون سمعًا طبيعيًا، ولا يتحدثون حديثًا طبيعيًا، ولا يصادقون صداقة طبيعية، ولا يحبون حبًا طبيعيًا، ذلك أنهم يعيشون على هامش من فطرة الطفولة.

ليس بوسع الإنسان أن يعتدي على أخيه الإنسان قبل أن يعتدي على الطفل الكامن في داخله أولًا. إن فطرة الطفولة لسوف تنهاه عن ذلك ولو عند حافة اللحظة الأخيرة. إن من علامات عافية الطفل لدى الكبير، عطف الكبير على الصغير، وحنين الكبير إلى الحارة التي نمت فيها طفولته، ومؤازرة الآخرين، والعطاء بسخاء، وعقد صداقات حميمية، والمواظبة على القراءة، وممارسة الهوايات، والعفاف في الحب، وإتقان الحرفة.

يقول (أيمرسون): "عندما تغتبط بسعادة الأطفال وجمالهم، تشعر بأن قلبك أكبر من جسدك".

يحتاج الإنسان إلى سماع صوت الطفل الذي كانه، ويحتاج إلى العودة إليه والتحاور معه، وكلما كان الكبير قريبًا من عالم طفولته، أحسن تربية أطفاله، وكان لهم خير رفيق.

من مقوّمات خصائص أدب الأطفال في التنافس

يخطو كاتب أدب الأطفال خطوات متقدمة مزدهرة في أدبه كلما كان متصالحًا مع الطفل الكامن في داخله. على هذا المفصل البالغ الحساسية

يشتغل كاتب أدب الأطفال، حيث يكمن دوره في هذا التعامل الحذر مع فطرة الطفل، وهو في ذروة تألقها ونموها، وذروة تألقه ونموه من جهة أخرى، كما أن دوره يكمن أيضًا في إعطاء صورة للكبار عن عالم أطفالهم، فالكبير الذي يقرأ أدب الطفل عليه أن يتعرف على جوانب لم يكن يخبرها من عالم الطفولة، والمهمة تقع على عاتق صانع أدب الطفل؛ لأنه ارتضى بنفسه أن يكون صانعًا لأدب الطفل دون أن يرغمه أحد.

عليه أن يجيد فن تقديم الطفولة إلى عالم الكبار، وتقديم الطفولة إلى الطفل بذات الوقت؛ لذلك يقع على عاتقه أن يواظب على مطالعاته في ميادين علوم الطفل، والتحليل النفسي لسيكولوجية الطفل، حتى يتسنى له إتقان فن إدارة الطفولة بمهارة، من خلال ما ينتج من أدب في هذا المحراب.

إن قراءة الكبير لأدب الطفل تختلف عن قراءة الصغير له، والكبير الذي يعيد قراءة ما كان قرأه في سنوات الطفولة سوف يختلف مفهومه لآلية التلقي، وهي قراءة مهمة، ويمكن لها أن تكون بمثابة إلقاء نظرة إلى الوراء بالنسبة إليه، فمن المهم أن نلتفت إلى الوراء أيضًا، ولا نكتفي بالنظر إلى الأمام فقط؛ لذلك نميل إلى قراءة ما يقرأه أطفالنا، بَيد أن هذه القراءة لا تفَعِّل في طاقاتنا ما تفَعِّله في طاقات الطفل، إننا نقرأ هذا اللون من الأدب حتى نتعرف على أطفالنا أكثر مما نعرف.

من هنا يمكننا أن نحكم على أنّ كاتب الأطفال هذا استطاع أن يُعرّفنا بأطفالنا أكثر مما كنا نعرف، أو أنه لم يفلح في مهمته، وقد نبلغ مرحلة نبعد كتبه عن متناول أيدي أطفالنا؛ لأنه أديب دخيل في محراب عالم الطفولة.

إن الطفل الذي يقرأ أدبًا قويمًا لأديب نافذ إلى محراب طفولته، يشعر بتماس علاقة بين فطرته التي يستوي عليها، وبين فطرة الأديب التي استوى عليها.

منذ أن تتفتح مدركات الإنسان على الحياة، تتفتح مدركاته الغريزية لتلقي أشكال وألوان العلوم والمعارف، فترى الطفل الصغير كثير السؤال، ويريد أن يعرف كل شيء عن طريق السؤال، وكلما كبر تعززت مكانة غريزة المعرفة في نفسه، فيعتمد على نفسه من أجل معرفة ما لا يعرف، وحتى من أجل معرفة ما لا يعرفه غيره.

أمام حقيقة هذه المنزلة الرفيعة للأدب، وأهمية الدور الذي يقوم به في الارتقاء بأذواق وسلوكيات ومعارف الناس ولدت فكرة صناعة أدب موجه إلى الطفل بشكل خاص، حتى تنمو مدركات الطفل في محراب القراءة، ويصبح الأدب جزءًا من حياته اليومية عندما يكبر؛ لأن الذي يكبر على تذوّق عسل القراءة يصعب عليه أن يهجرها، عندئذ يرتقي به السلوك القرائي لتصبح القراءة جزءًا أساسيًا من حياته، ولا يكتفي بالاستمتاع بها من خلال اغتنام أوقات الفراغ، بل يخصص لها جزءًا ثمينًا من وقته كسائر مقومات حياته اليومية.

ولم يكن الأمر ميسرًا في البداية، بيد أن المحاولات تتالت حتى تكللت بالنجاح، وأصبح أدب الأطفال فتحًا جديدًا مبينًا من الفتوحات الأدبية، فقد استطاع أدب الأطفال أن يبني لخصائصه مؤسسة صناعية أدبية طفلية على أرضية ثابتة خصبة بأسماء حرفية ذهبية، وهي مؤسسة صناعية تُخرّج كل عقد

ثلة من الصناعيين الجدد الذين يتألقون ويبدعون، ويجددون لمؤسستهم الصناعية أمر دعائمها.

الأديب الذي يقرأ له الطفل، يمثل في مخيلته صورة المعلم الذي يتعلم منه في المدرسة، إنه معلم حاضر بكتاباته وحكاياته التي يحفظها الطفل. استطاع المعلم أن يقدم لعالم الطفولة الكثير، واستطاع الأديب أن يقدم لعالم الطفولة الكثير.

أدب الطفل يحمل ملامحه ومقوماته التي تميزه، ومكتبة الطفل تقف على تاريخ عريق من الإبداع الذي هو ملك للطفولة مدى العصور.

يبقى دور الآباء مهمًا من أجل تحفيز الأطفال إلى القراءة، ومن أجل تعزيز قيمة وسلوك القراءة لديهم، ولعل وجود مكتبة في البيت يؤسس لسلوك وتقليد القراءة لدى الطفل.

يقول (أرديزون): "إذا لم نلمّح إلى العالم القاسي في كتب الأطفال، فإننا لن نكون صادقين على ما أعتقد".

كثير من الأدباء تحدثوا عن مفهومهم لسيكولوجية الطفولة بناء على تجاربهم الشخصية، وبعض الأحداث التي جرت معهم في سنوات الطفولة.

يقول (جان جاك روسو): "دموع الأطفال هي توسلات، فإن كانت لا تُجاب صارت أوامر"، ويرى (هارولد هولبرت): "الأطفال بحاجة إلى الحب، ولا سيما إذا كانوا غير جديرين به"، وفي رأي له يقول (أندريه مورو): "أطفالنا بحاجة إلى وجودنا أكثر من حاجتهم إلى عطايانا"، أما (برناردشو) فإنه يقول: "الأطفال أناس صغار لا يسمح لهم بأن يفعلوا ما كان آباؤهم يفعلونه وهم

صغار"، كما أن الطفل يستحق منهجًا تربويًا، فإنه يستحق أن يتخصص الكاتب في إنتاج الأدب الموجه إليه.

توظيف مواهب الأطفال النوابغ في التنافس

وهذا أمرٌ بالغ الأهمّية في هذا التنافس بين إنتاجنا الأدبي المحلّي والإنتاج العالمي، ولذلك نرى عناية مركَّزة واستثنائية بالأطفال النوابغ في بلاد العالَم، سواء أكانوا مواطنين في تلك الدول، أم مقيمين، وقد اشتهر الأطفال عبر التاريخ بالعبقرية والنبوغ، وكان الإغريق يصفون العبقرية بالجنون المقدس، أو بالإلهام الآلهي.

وعلى سبيل المثال، استطاع الطفل (كارك ويت) أن يلفت نظر العالم إلى عبقريته عندما استقبلته جامعة (لايبزغ) دكتورًا للفلسفة وهو في الرابعة عشرة من عمره، وكذلك الأمر بالنسبة للفيزيائي الشهير (اللورد كلفن) الذي دخل جامعة (غلاسكو) في العاشرة من عمره، وبعد سنتين حقق ألقابًا جامعية متقدمة.

ولا تقتصر العبقرية على فئة دون غيرها، ولكن يجب البحث عن هؤلاء النوابغ والعباقرة من الأطفال، خاصَّةً في الأحياء الفقيرة؛ لأن هذه العبقرية إذا لم يُتَح لها أن توظَّف توظيفًا إيجابيًا يمكن لها أن توظَّف توظيفًا سلبيًا، خاصّةً تلك الأعمال السلبية التي تعتمد على العبقرية. يقول (جانكز): "لكي تجد أطفالًا موهوبين، حسبك أن تؤمن بذلك، وترغب رغبة حقيقية في البحث عنهم".

و يمكن أن نعثر على ملامح العبقرية والإبداع من خلال قراءة صفحات أدب الناشئة في الصحف والمجلات الأدبية، فنرى أفكارًا مدهشة

يكتبها أطفال؛ وبذلك يمكن لطفلٍ واحدٍ مِن بلادِنا أن يلفت أنظار العالَم من خلال عملٍ عبقريٍ يقدّمه ببراعة، وهذه من أقوى عوامل التنافس مع منتجات العالَم.

وهنا لا بد من العناية بموهبة الطفل الذي يريد أن يعبّر عن نفسه من خلال الكتابة، وحقيقة الأمر أن ما يكتبه الطفل هو بالغ الأهمية بالنسبة لكاتب الطفل بوجه خاص؛ إذ أنه يتمكن من ولوج معالم الطفولة من خلال ما يعبر عنه هذا الطفل، وهي كتابة تحتاج إلى شيء من الجهد في سبيل تحليلها وتأويلها، واستخراج جواهر ما يريد الطفل من خلالها، إنها صفحات أدبية شبيهة بأريج زهرة تتفتح باستحياء للتو في حديقة المنزل.

من جهة أخرى، يمكننا الاستفادة من القصة التي يكتبها الطفل، في محاولة منا لإجراء مقارنات بينها وبين القصة التي يكتبها الكبار للأطفال، وهي مقارنة يمكن أن تكتسب درجة الأهمية القصوى بالنسبة لكاتب الطفل على وجه الخصوص؛ لأنه يستمد منها زاد التخاطب الأدبي مع مخيلة الطفل في علاقة تكاملية – هذه المرة – بين الطفل المبدع، وبين الكاتب الكبير المتلقي، ثم قلب هذه العلاقة بكثير من الحذر لتولد منها ثنائية علاقة تكاملية بين الكاتب المبدع، وبين الطفل المتلقي.

إن ما يكتبه الطفل يكتسب أهمية أولى قبل أي كتابة أخرى، سواء كانت من الكبار للكبار، أو من الكبار للأطفال، مهما كانت هذه الكتابات متقدمة في درجات التحليل والتوفيق، لكنها بالنسبة لكاتب الطفل تفتقد روح

التلقائية الطفلية في التعبير، هذه التلقائية التي هي امتياز خاص بالأطفال دون غيرهم.

أريد أن اوضح أن التلقائية هنا تشبه حمل آلتي تصوير فيديو: واحدة يحملها رجل، والأخرى يحملها طفل، فنرى الرجل يركّز على مقاطع التصوير؛ لأنه يشعر بأن المصوَّر يُمثله، ويجلب عليه مسئولية، بيد أن الطفل يقوم بالتصوير التلقائي، دون أن يخطر بباله أن المصوَّر يمثله، وإذا كان التصوير في موقع حساس، فنلجأ إلى ما قد صوره الطفل بالدرجة الأولى؛ لأنه يكون قد التقط الحقيقة كلها بتلقائيته.

التلقائية تكتسب درجة التصديق والثقة أكثر من غيرها، وبناءً عليها قد تصدر أحكام قضائية مهمة بحق الكبار الذين وقعوا في قفص تلقائية طفل، وبناءً على هذه الثقة يعتمد الكثيرون على تلقائية الأطفال في معرفة الحقائق، فعندما يخرج طفل مع أبيه لبعض الوقت من البيت، يمكن أن تسأله أمه فيما بعد عن الأشخاص والأماكن والأحاديث التي سمعها؛ لأنها تدرك بأنه سيقول الحقيقة كلها ربما أكثر من أبيه الذي قد يواري بعض الحقيقة، وهذا يحدث أيضًا بالنسبة لأهل التحقيق في الحوادث والجرائم التي تقع بوجود أطفال، ورغم أن الطفل شخص لا يؤخذ بقوله؛ كونه دون سن الرشد أو البلوغ، إلا أن قوله يؤخَذ على محمل الثقة بالنسبة للمحقق، كما هو الحال بالنسبة للأم في البيت، وهكذا، فإن كاتب قصة الطفل يثق بالقصة التي يكتبها الطفل، ويسعى إلى قراءتها بكثير من التدبر والتأمل والتأويل.

وعلينا أن ننتبه إلى أن الطفل وهو يكتب لا يتجه بكتابته إلى الطفل مثلما يفعل كاتب قصة الطفل الذي يُركّز كتابته إلى عالم الطفولة، بل هي كتابة منبثقة من عالم الطفولة إلى عالم الكبار؛ ولذلك يمكننا التعرف على الطفل من خلال ما يكتب، حتى إذا كان هذا الطفل أصم، وهو حين يكتب لا يتجه بكتابته إلى شريحة معينة، بل يكتب منطلقًا من طبيعة تلقائية الطفولة اللا مسئولة التي هي ميزة خاصة بالطفل دون غيره. هنا علينا أن نتجنب بشيء من الحذر مقارنة الطفل بالمجنون حتى لو تشابهت بعض التصرفات والأقوال والسلوكيات(٣)؛ لأن المجنون هو شخص يدور في متاهة الجنون، وعقله غير قابل للنمو والتطور، في حين أن الطفل، هو شخص عاقل يتقدم في درجات العقل والمعرفة والانفتاح على منارة الحياة.

وعلينا أن نميز كثيرًا بين الأدب الذي يُكتب للطفل بشكل خاص، وبين الأدب الذي يقرأه الطفل بشكل عام؛ لأن الطفل قد يقرأ شيئًا للكبار من مكتبة البيت، وقد يحدث العكس، فيقرأ الكبير شيئًا من الأدب المكتوب بشكل حصري للطفل. عند ذاك يمكننا التعرف بشكل جيد على خصائص وميزات قصة الطفل، ويمكننا التفريق بينها وبين قصة الكبار، والطفل أيضًا عليه أن يميز بين القصتين، وعلى قصة الطفل أن تستقطبه أكثر من قصة الكبار إذا خيّر الطفل بين قراءة قصتين: واحدة للأطفال، والأخرى للكبار.

إن الطفولة شبيهة بزهرة يانعة شفافة تظهر للوجود في الأيام الأولى من الربيع، وتحتاج إلى عناية مركزة، وعوامل بيئية طبيعية حتى يكتمل نموها، وتتفتح أوراقها، وتقدم للبيت كله، وللحديقة كلها أريج عطرها الفواح، ثم تهب

طيب العسل من خلال نحلة تقوم بزيارة إليها، ثم تقدم انشراحًا وراحة نفس ونظر لناظرها، ثم تقدم لمسة جمالية إلى الحياة.

هوامش البحث:

١. شهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، السفر الثاني، دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٤.

٢. عبد الباقي يوسف: إمام الحكمة (رواية)، الكويت: منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢٠١٠.

٣. يمكن الاستفادة في هذا المجال من كتابات: هارلوا، وبائير، وهافجهير ست، وبراير، وبياجة، وكولبيرج.